University of Benghazi
Faculty of Education Al marj
Global Libyan Journal

جامعة بنغازي
كلية التربية المر ج
المجلة الليبية العالمية

العدد الرابع و العشرون- 25/ يوليو (2017)

القلق في شعر علي الفزاني

د.سوف أبوالقاسم الرحيبي

(كلية الاداب الاصابعة – جامعة الجبل الغربي - ليبيا)

ملخص البحث

نعرض في هذا البحث لظاهرة القلق في شعر شاعر ليبي، مكنته موهبته من الوصول إلى العالمية، بل وأصبح من الشعراء الذين كان شعرهم شاهداً على مرحلة مهمة من تاريخنا الليبي والعربي، وقد عرضنا لمظاهر القلق وفق رؤية علمية منطقية استفدنا فيها من طروحات علماء النفس والاجتماع والفلسفة، ليخرج البحث بالنتيجة التي توقعنها منذ البداية، وهي وجود هوة كبيرة بين الفزاني والمجتمع، وإن تظاهر بالثورية والتمرد، فتمرده لم يكن سوى تعبير نفسي واضح على عدم القبول لواقع هو يراه ليس سوي، بمعنى أن النظرة الشعرية للفزاني جعلته ينظر بمنظار آخر ويشاهد من زاوية مختلفة.

ولا نريد هنا الاسترسال في التحليل، فليس هنا محله، بل أردنا التوضيح لما كان يفسر الحياة القلقة التي نقرأها في شعر علي الفزاني، وفي هذا البحث نتناول تعريف القلق بوصفه خبرة شخصية مؤلمة يعيشها الشاعر، نتيجة شعوره بعدم الاهتمام من الأفراد المحيطين به، وكذلك شعوره بعدم القدرة على إقامة علاقة اجتماعية، انعكست في مجمل شعره.

Abstract:

We show in this study of the phenomenon of anxiety in the poetry of the poet Libby, enabled his talent to reach the world, and even become poets who had their hair witness to an important stage of the Libyan and Arab history, we have offered to the manifestations of anxiety according to a scientific vision logical benefited in which the arguments of psychology, sociology, philosophy scholars , to come out search result that Toukanha since the beginning, is the presence of a large gap between Aelovesana society, though pretended revolutionary rebellion, Vtmrdh was only express myself clear on the non-acceptance of the reality he sees is only in the sense that the poetic vision of Fsana made him look lens and another seen from the angle different.

We do not want here dragging in the analysis, it is not here him, but wanted clarification of what was interpreted restless life that we read in the poetry of Ali Aelovesana, and in this paper we address the definition of anxiety as a painful personal experienced poet experience, as a result he felt no attention from those around him individuals, as well as his sense of the inability to establish a social relationship, reflected in the overall hair.

مفهوم القلق:

لقد كان القلق-ولا يزال- من الموضوعات المهمة التي اهتم بها علماء النفس والاجتماع والفلسفة، فالإنسان يمتلك استعداداً عاماً للقلق، ليأخذ حذره من مخاطر الحياة، كما أن معظم القلق ينشأ معه نتيجة لتعرضه لتجارب صادمة في مراحل حياته الأولى بصورة خاصة تظل كامنة لسنوات عديدة في أعماق الذاكرة، أو ما يسمى عالم اللاشعور، فهو ((أحد الانفعالات البدائية العنيفة، يتملك المرء فيشله عن الحركة ويخمد نشاطه، ويتصف القلق بحدوث تغيرات واسعة المدى في الجسم، كما يتصف بسلوك لدى الشخص قوامه الهرب أو الفرار أمام المثير الخارجي))[i] وهو أيضاً ((استجابة لبعض المثيرات المنتجة له، مثل الشك والتردد والفزع والاشمئزاز، وتثار هذه الاستجابات بحدوث بعض الأشياء التي قد توصف بصفات متعددة مثل مخيفة محذرة، واستجابة القلق قد تؤدي إلى استثارة سلوك آخر مثل الهرب أو العذر أو الهجوم))[ii] وبسبب تلاحق الأزمات وتسارعها، وانتشار وسائل القهر والقتل بين الناس، شكّل القلق((عاملاً مشتركًا بين الأدباء، في كلِّ مكان من العالم، نظرًا للظروف التي تمرُّ بها المجتمعات الحديثة، وهي ظروف يشوبها التوتر والضياع، الذي يعيشه الإنسان العصري))[iii] في شتّى دول العالم، وتأثر الإنسان والشاعر بطبيعة الحال بالظروف القاسية التي عايشتها البشرية في العصر الحديث كونها الحاوية ((للموجودات المتكاثرة، ومحل التغيير والحركة في العالم المحسوس، عالم الظواهر الحقيقي))[iv] ولذا سيكون من الطبيعي أن يتأثر الإنسان بهذا المحيط الذي يعج بالحركة.

تحليل:

أمام تعدد الأشكال وتعقد الحياة صرنا أمام أزمات أخطبوطية يصعب حتى تحديدها أو فهمها، فـ((فالشاعر القديم كان يقف برؤيته–في الغالب–عند حدود الوجه الواحد، فإذا هو رأى الوجه المُطْرِب طَرِبَ وإن هو رأى الوجه المُحْزِن حزن، أمَّا الشَّاعر المعاصر فقد اتَّسعت رؤيته واكتسب نوعًا من الشمول، فلم تعدْ أشكال الحياة أمامه ألوانًا مختلفة يستقل بعضها عن بعض وإنما تتمازج فيها الألوان لكي تصنع الصُّورة العامَّة، ومن ثمَّ لم يعد الشِّعر المعاصر سوى الجانب النَّاصع وحده، أو الجَّانب القاتم وحده، وإنَّما يرى الجانبين ممتزجين، فإذا هو رأى الجانب القاتم))[v] زاده قتامة، وإذا رأى الجانب المشرق قتّمه، لماذا؟ لأن السمة الدائمة للإنسان في عصرنا لا تبعث في الحياة جمالها رونقها، بل تزيدها سوداوية أخرى.

وموضوع القلق يشكّل نقطة مهمة في حياة علي الفزاني، ((بوصفه حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الفرد في بعض المواقف، ويسلك فيها سلوكاً يحاول به الابتعاد عن مصدر الضرر))[vi] تلك التي نقرؤها في شعره، فتشعر كأنك أمام مأساة حقيقية عاشها الشاعر في مجتمعه وفي عالمه، ولسنا نسيء إذا ما قررنا أن القلق في شعره ليس كله بمؤثرات خارجية، وبأدق ليس بأفعال خارج الشاعر، بل نعتقد أنه وجد الأساس والأرضية الصالحة لنموه في داخل علي الفزاني ذاته لأسباب كثيرة نشير إليها بحذر منها: لونه الأسود، فربّما شعر الفزاني بجفاء من المجتمع الذي عاش فيه أو أقام، وهنا نجد ما يبرر لهذا القلق، ومنها تأثره بالتمذهب الشيعي، فلم يكف الفزاني من الإشادة بآل البيت والمظلمة التي تعرضوا لها، وهنا يبرز القلق أكثر ويتعمق باطراد، لتخرج أمامنا صور قاتمة انتهت إلى بذرة صالحة للقلق، أو الخوف، أو الحقد على المجتمع أو من ينتمي إليه.

ولعلّنا لا نبعد كثيراً، خاصة عندما نلحظ هذا القلق والكره عند شاعر آخر شابه الفزاني أو أنه قاربه، أو الأحوال الخاصة قد جمعت بينهما، وهو عنترة ابن شداد الذي كان لونه سبباً في معاداة قومه له أو عدم الفخر بهم وفخره بذاته وانتصاراتها على واقعها الأسود السوداوي المخيف، ولعل ذلك الواقع جعل من عنترة فارساً، وجعل من غيره مجرد صعاليك قطاع للطرق ثائرين على واقعهم المرفوض عقلاً، ولكن الواقع –واقع الفزاني-وإن كان مقارباً، لم يجعل منه فارساً، وربما جعل منه ثائراً لم تسمح له حياته بأن يصبح ثائراً بيده، ولن نقبل بالتبرير المتكرر الذي يفسر ذلك على كونه شاعراً سلاحه الكلمة، فعنترة،

وخفاف بن ندبة السلمي، والسليك بن سلكة السعدي، شعراء، ولم يكتفوا بالكلمة، بل ثاروا بسيوفهم متمردين على تلك الأحوال غير السوية.

وقد حاولت أن تكون مباحث هذا العمل متصلة ومتواصلة تعبيراً عن عدم وجود ضوء أو انفراجه واضحة في شعر علي الفزاني، ويمكن للقارئ استجلاء القلق بصورة متصلة في شعر علي الفزاني كونه لم يتعلق بموقف محدد مؤقت سرعان ما ينتهي، بل هو القلق الدائم والمستمر الذي تجسد في تلك القصائد الخالدات.

سنلحظ فيما يلي من نصوص شعرية لشاعرنا الفزاني قلق مخيف بل ومرعب، تبدو دوافعه لدى الفزاني متنوعة ومتعددة، لعل بعضها طرحناه قبل قليل، وهو ما يتصل بوجود فجوة محددة بينه وبين الناس في مجتمعه وفي غيره، أو ما يمكن تسميته بالدوافع الخاصة أو الذاتية، تلك التي تتعلق بشخصية الفزاني نفسه، والتعلّة في ذلك نرجعها إلى وجود انفصام بينه وبين الآخر، هو واقع أسلافه، عنترة وغيره، مع أن الطبيعي ((أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة وإلى مسقط رأسها تواقة))[vii] ولكن هذا الاشتياق لا وجود له عند من يفقد الحميمية، يقول في قصيدة طويلة تجزيء منها:

قلتُ للشيخ: طريقي ضاع منّي

فأدعني

قال: زدني

قلتُ: آتٍ من ليالي الشرق سكران بحزني

قال: زدني!

قلتُ: يا شيخ أنا أخشى عذاباتي وسجني

قال: زدني!

قلتُ: لا أقوى على البوح- وإني

قال:

دعني!

سيدي تلك-جوازات-مروري والحقيبة

واسطوانة

وكتاب وجوارب

وشريط لحديث- فوضوي عبر حانة

ليس في الخرج- أداة للحلاقة

أو قذيفة!

وحده الصمت في حلقي قذيفة[viii]

يصوّر النص قلق الشاعر من خلال المرجع أو الشيخ، أو من خلال الصور التي قدمها خطاب الشاعر (قلت: آتٍ من ليالي الشرق سكران بحزني) فالحديث الذي يظهر ها هنا على أنه حديث حميمية وراحة، ما هو إلا الشكل السطحي له، فالتعمق أكثر يبرز مدى فاعلية القلق والنزف الذي يبرزه حديث تلك الضحية (الشاعر) ((وكأن العملية "مطٌّ" للقالب الشعري دون أن يفقد خصائصه البنائية التي هي له

أصالة، بل نحسب المط والتمديد ظاهرة نتوهمها ونحن نقرأ القصة الشعرية دون أن يكون لها وجود فعلي، وأنها مجرد إحساس غامض يوهمنا به السرد أثناء ملاحقة الحدث)) [ix] وانطلاقاً من النظرات التي يمكن أن تتحكم في المقاصد الواقعية والعصرية والوجودية التي رمى إليها النص، ولدى كلّ سطر نجد سواد يفضي إلى مثيله أو ما يقاربه (قلت: يا شيخ أنا أخشى عذاباتي وسجني) تجسد في صورة القهر والظلم وهما ((لا يحدثان في الفراغ بل من استلاب الوعي والواقع عبر صراع يمتد من اللغة إلى الاجتماع والتاريخ)) [x] من خلال الصمت والسجن والحلق المغلق، الذي نتج في جو قلق غريب، وهذا هو التعبير الواضح لذلك السوداوي المشبع بالظلم والقهر.

المقدمة الأولى للقلق، هي السؤال، والسؤال إن وجه إلى الشيخ الذي أراده الفزاني من ذوي التجارب فنتج عنه حوارية تصب في القلق ولا تفضي إلى شيء، فتبرز قضية مهمة وهي علاقة الجسد بالقلق، أو دلالة الجسد عليه، أو قضية تشكل الجو العام، والدور الذي يؤديه الجسد في هذا التشكل[xi]، وهنا تعكس سردية القلق في النص السابق إشكالية واقعية، بوصفه مفهوماً وغريزة شكلتها في الطبيعة الإنسانية مجموعة من الثقافات، ثقافة الوجود على الأخص، والشيخ الذي سلّط الشاعر منها ضوء الكشف ليُعري السائد العام، هذا التصوير، وتلك الدلالة، يعرضه النص لتصوير الأفق الاجتماعي، ولم يجد النص طريقة أشد دلالة من (زدني) لأنّه لم يدخل في البداية إلى بحث العلاقات الاجتماعية، لذلك استعان بالشيخ ليقدم تصوّره الأوليّ عن هذا المجتمع، فـالقلق((يتسبب في مزاج هابط لا يمنعك من السير في حياتك الطبيعية، لكنه يصعب عليك القيام بالأمور، ويجعلها تبدو أقل قيمة في أعنف حالاته)) [xii] ويأتي بعدها الانتقال إلى المعنى الخاص الذي يتمثل في ((القنوط، واليأس، وانقطاع الأمل، والخوف، فيصاحبها اتجاهات سلبية، وتغييرات في محيط الدافعية، أو في القوى الدافعة المحركة للإنسان، وفي الانطباعات المعرفية، وبشكل عام في السلوك السلبي، والفرد في حالة القلق يخبر بعض الانفعالات، منها الحزن أو الميلانخوليا)) [xiii] أو اليأس أو الصمت الذي يجعله في الغرف المظلمة السوداء، ليعمم النص السواد على الأنحاء الباقية (وحده الصمت في حلقي قذيفة) يقول:

جسدي كان المسيح

وانحناءاتي طلاء يخدع الطاغوت-

لابد من العُرى- إذا اشْتدَّ من قهر جموح

وطني امرأة أسكن فيها

هذه الكينونة الأولى- رغبتي كون فسيح

كان لي ملكاً وحيداً

أصبحا ملكين- صارا عالمين

أصبح السلطان والعفريت عندي

لعبتين

سأعيد الجن لأصفاد مغلول اليدين

والذي أظهر علماً

سوف يغدو- للنخاسات

رهين![xiv]

ينفتح النص أمام مأساة، تحول فيها المجتمع إلى غابة توحش فيه الناس، ليذهب بمعنى المرأة ويعود بها إلى أزمنة أخرى وعوالم قديمة، عالم بيع وشراء الأجساد، حيث البيع لمن يدفع أكثر وهنا نحن أمام نص خرق مسافات الزمن ليعيده من جديد، حيث العبد عبد والسيد سيد، فلقد أراد الفزاني أن يعيش في عالمه هو انتجه قلقه من عالم يشاهده يسعى من خلاله إلى تكوين الخصوصية الفردية التي تقول إن الإنسان هو الإنسان مهما حاول الاستتارة وراء بهارج الحضارة والتلوين والتزويق، لقد أراد القول: إن السادة سادة والعبيد عبيد، لا فرق في الأزمنة، وإن قسمها قسمين (صارا عالمين) لقد ظهر القلق سوداوياً لا شك هو نتيجة تاريخ يسكن الإنسان ويجبره على الخضوع والاستجابة له، إنه عالم لا مهرب منه ولا مسرب.

إننا أمام القلق المأساوي الذي ((يقع خارج عالمنا الداخلي، وبمعزل عن منظوماته المختلفة على خلاف الفن المتجذر في الداخل, إننا نلاحظ دائماً أن الخارج الطبيعي لا يمكن أن يعطينا ما لا نملكه في داخلنا))[xv] ولذا أسقط الشاعر العناصر الخارجية على الذات واهتم ((بتصوير مرحلة الطفولة لأنهم كانوا يمجدون حياة الفطرة والبراءة ونقاوة القلب والسريرة ووجدوا من ثم في الطفولة تعبيراً عن الدهشة وتجسيداً لإدراك العالم على نحو سحري))[xvi] ولهذا الوجه ما يدانيه في اتجاه الشعراء إلى ((المعجب والخارق والمعجز الذي يجاوز عنصري الزمان والمكان، ويعلو على الطبيعة والمدرك الحسي المعتاد))[xvii] ويتجلى هذا في إعادة الزمان وحده، لأن الإنسان هو الإنسان لم تغيره الحضارة، ولم تؤثر فيه، والأدلة التي تجعل من توجه الفزاني ذاك التوجه كثيرة لا سبيل لشرحها وفرزها، يقول:

مفكرتي الصغيرة

صفحات بيضاء لم أكتب فيها شيئاً بعد

من الغباء أن يكتب المرء كل شيء

عليَّ أن أعيش في هذا العصر

بذاكرتين واسعتين

وأن أقذف نفسي بين المسافتين

أختبئ هناك كسمك قرش في ظلمات المحيط

هكذا يمكن أن أمارس تلقائيتي

وفوضويتي بعيداً عن أعين اللصوص

مساحة الاغتراب أوسع من مساحة الأرض

أوسع في الذهن من الكون

يمكن للمرء أن يصنع من الكارثة

شيئاً مفيداً للآخرين

حفاة الغرباء أقوى قدماً

عراة الناس أصدقاء الفصول

للجياع مأدبة سرمدية

قد تكون هي الجوع

هكذا نحن لن نخسر شيئاً

(إذا زلزلت الأرض زلزالها)

إذْ- ذاك نكون على علاقة جيدة

بأسوأ الأشياء[xviii]

إنّ الفزاني في النص السابق يبرز قلقاً موحشاً، وكأننا أمام ذلك الوجع الداخلي الذي يلامس الروح بكثير من الأسى (مساحة الاغتراب أوسع من مساحة الأرض) إنّه يسرد التفاصيل الصغيرة، والمواقف، والأحداث مع نسبية الحركة التي تجعل من القلق يتسع، فـ((الشعور بالضيق والاضطراب وعدم الاستقرار النفسي يصحبه شعور مبهم بالخوف من شيء غير محدد بالذات أو من توقع حدوث شيء ما، وهو يتفاوت في الشدّة من مجرد شعور بالاضطراب إلى شعور مرعب يعجز الإنسان معه عن أداء أي شيء)) [xix] وفق ذلك الحد لا يجد الفزاني إلا أن يعيش بذاكرتين واسعتين، فـ((سمة القلق عن طريقها يمكن الكشف عن حالات القلق في الماضي، كما تعكس احتمال أن يعاني الفرد من سمة القلق في المستقبل وكلما كانت سمة القلق أقوى زاد احتمال أن يعاني الفرد من ارتفاعات أشدّ في حالة القلق في المواقف التي تتضمن تهديداً))[xx] ومن ثم يشعر الإنسان وكأنه من يصنع قلقه او كارثته، لندرك من خلال النص أنّ قلق الشاعر كان متلازماً مع فقدان الثقة بالمجتمع (من الغباء أن يكتب المرء كل شيء) ليطرح النص القلق بمعادله الموضوعي(الاغتراب) بوصفه معضلةٍ وعقبة فهو حلقة سلبية أساسية من الحلقات التي تجشم على صدر الشاعر فـ((نماذج العالم الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية العامة التي ساعدت الإنسان على إضفاء معنى على الحياة التي تحيط به، هذه النماذج تنطوي دوما على سمات مكانية وقد تأخذ هذه السمات تارة شكل تضاد ثنائي))[xxi] حيث أمدها الشاعر هنا بالتشكيل القلقي فهنالك قصور في تفكير الأفراد (مع نسبية الرؤية) التي تسيطر عليهم رؤية ضيقة، فندرك أنّ القلق الذي طرحه الفزاني جعله ينعم بالألم ويرتكّز على الشعور بأنّ الأفراد في الواقع قد فقدوا جوهر الإنسانية الحقيقي.

إنّ القلق أو سوداويته ((ليس مَرَضاً كما أنّه ليس نعمة، إنّه ملمح رئيسي للوجود الإنساني))[xxii] في هذا العالم، ثم ((ما الذي يفقده الإنسان، وكيف يفقده؟ إنّه وهو ينتج أشياءه إنّما يفقد ذاته في شيءٍ خارجي عنه ... إنّ جزءاً من النّفس يتجه إلى الخارج، وهذا الجزء إذا وقف معادياً للإنسان سقط في التشيّؤ، وأصبح الشيء الذي أنتجه غريباً عنه، أمّا إذا اكتشف في الشّيء المنتج ذاته فلأنّه يكون قد ضاعف ذاته، ويتّحد مع إنتاجه من جديد، ويستعيد الوحدة السابقة ولكن بعد أن يكون علا على الوحدة البدئية))[xxiii]، في عملية معقدة، داخلية نفسية، وخارجية سياسية، واجتماعية وحضارية.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّنا إزاء ((حالة انفعالية، يشعر فيها الفرد بالانقباض والحزن والضيق وتشيع فيها مشاعر الهم والغم والشؤم، فضلاً عن مشاعر القنوط والجزع واليأس والعجز وتصاحب هذه الحالة أعراض محددة متصلة بالجوانب المزاجية والمعرفية والسلوكية ومنها نقص الاهتمامات وتناقص الاستمتاع بمباهج الحياة))[xxiv] أما تسمية القلق بالسوداوية الاجتماعية، أو السياسية أو النفسية فذلك راجع- كما أعتقد-من دواعي حياة الشاعر نفسه-التي يصعب تفسيرها هاهنا- التي أمدّته بعناصر متنوعة.

لقد تحوّل الفزاني في صراعه مع القلق إلى حي ينتظر الموت، وتحوّلت الحياة إلى ظلام يمتلك إمكانية التأثير العميق فيه، فيبدو ((أن فاجعة البقاء أثقل من فاجعة الموت، إذا كان البقاء رديف السكون، والهمود، والانتظار الذي لا رجاء فيه، ولا أمل بعده))[xxv] هذا النص تجربة ذاتية مفعمة بالصدق العاطفي الناتج عن الحس العميق بمأزق القلق.

والنص التالي مشحون بعذاب النفس وأرقها؛ في ((حالة انفعالية عابرة أو دائمة تتصف بمشاعر الانقباض، والحزن، والضيق، وتشيع فيها مشاعر كالهم، والغم، والشؤم، والقنوط، والجزع، واليأس والعجز، وتترافق هذه الحالة مع أعراض تمس الجوانب الانفعالية والمعرفية، والسلوكية، والجسمية تتمثل

في نقص الدافعية وعدم القدرة على الاستمتاع))[xxvi] ذلك أنّ الداخل اتكأ على مشهد في الخارج، يعّبر بواسطته على ما يحسّه، مما أبعده عن الوصفية الساكنة، وليس من شكٍ في أنّه يعّبر عن ذات تعيش عزلتها؛ من هنا، فإنّ النص نموذج معبر عن القلق الذي وسم حياة الفزاني وشعره:

ينشقُ بطنُ الأرضِ بالزلازل

تحترقُ البيوتُ والكرومُ والسنابلُ

يجتاحنُا الطوفانُ والتتارُ والجحافلُ

تمطرُنَا السّماءُ بالصخورِ والقنابلَ

تنهارُ فوقَ صدورِنَا دعائمُ المنازل

يعودُ هتلرُ المجنونُ صائلُ[xxvii]

إنّ المعاناة الروحية للشاعر قد وجدتْ في الانهيار مخرجاً في التعبير عن إشكالاتها فمن خلاله، تمّ التعبير عن الفراغ الروحي، وعن العلاقة المتأزمة بينه وبين المجتمع، وعن القلق النفسي وعن الإحساس الحاد بالعزلة والتوحّد، فـ((الشخص الذي يتصف بمستوى عالٍ من النزوع أو التهيؤ للقلق، يكون مهيئاً لأن يدرك أخطاراً دائمة في علاقته بالآخرين، تتضمن هذه الأخطار غالباً القلق وعلاقته بالاكتئاب، والتهديدات لتقديره لذاته، ويستجيب الفرد لهذه التهديدات بمستوى كبير من حالة القلق، وذلك أكثر من الشخص الذي يتصف بمستوى منخفض من سمة القلق، فحالة القلق تعني رد فعل لما نعيشه من مواقف في زمنٍ محدد، في حين إن سمة القلق تعني ما هو كامن ومتأصل في نفوسنا))[xxviii] إنّ ثمة تكاملاً وتجادلاً بين الانهيار، والتهديد، والزلزال، والحرق، والكروم، والسنابل والطوفان، والتتار، والجحافل، لتصبح هي الحالة المفزعة التي تجمع الانهيار والزلزال القضية الأولى في النص الشعري، فالزلزال في تحوّل دائم إلى الدمار، ومنه إلى التأزم النفسي الذي يعيشه الشاعر ويحيا به.

ولا بدّ من القول: إنّ التوتر والألم في الشعر العربي المعاصر عامة، وفي الشعر الليبي على وجه الخصوص، ظواهر أصيلة، تستند إلى ((حامل اجتماعي أصيل أيضاً، لذا، فإنّ هذا التوتر أو الانخلاع الذي أخذ يعيشه الشاعر المعاصر إلى حدٍ بات من الممكن عنده القول: إنّ القصيدة المعاصرة هي قصيدة الأزمة، أو قصيدة الإشكال، هذا التوتر وهذا التأزم، لا يمكن القول بأنّهما مستوردان من الغرب، كما زعم بعض أعداء الشعر المعاصر، بل هو انعكاس لألم صميمي بين أفراد الجنس البشري بعامة، وهو في الوقت نفسه نتاجَ الذعر الذي يثيره واقعنا))[xxix] الخاص وواقعنا التاريخي المهزوم، يقول:

ربّاهُ هَذِهِ بصّارةُ البلدِ الآمنِ

تَحْفُرُ رَمسَهَا[xxx]

وهَذِهِ زرقَاءُ اليَمَامةِ تَجرعُ السّم

انتحاراً تقطعُ حبلَ الوريدِ

أسألُ هَذِهِ مَاذَا رَأيتِ؟ أسألُ

أختَهَا ماذَا هناك؟

تقولانِ: قيامةٌ- للخياناتِ ترجعُ مِنْ

جديدٍ

يكتبُ المرجفونَ (لبغدادَ) اسماً جديداً

بِدمِي النبويّ

سأكتبُ اسمكِ على جَبهَتِي-وفوق الصّراطِ

المَحْمِي وَعَلَى

أزمنةِ تأتِي – أُسميكِ مُدناً غَائِبَة[xxxi]

لقد كان الفزاني غريباً في بلاده، لأنّها تشعره بالعبودية، وتحرمه من أدنى حقوقه الإنسانية، وهذا ما يسوقنا سوقاً إلى تجارب أخرى مشابهة، فنحن نقرأ هذا النص نشعر بروح عنترة الحاضرة تحوم حول النص لتمده بكل معالم الكره والحقد والرفض، وهنا يصبح الشاعر((أقل استجابة وأكثر تركزاً حول ذاته، ويميل إلى الذكريات، وتكرار حكاية الخبرات السابقة، وتضعف ذاكرته ويقل اهتمامه وميوله، وأيضا تضعف طاقته وحيويته، ويشعر بقلة قيمته في الحياة، وهذا يؤدي إلى الاكتئاب والتهيج، وسرعة الاستثارة، والعناد والنكوص إلى حالة الاعتماد على الغير، وإهمال المظهر وباختصار يصبح صورة كاريكاتيرية لشخصيته السابقة))[xxxii] لذ يكون من المنطقي أن تتوسع دائرة الإحساس بالسوداوية لدى الشاعر، إذ كان النفي نفي الآخرين عامة، لهذا فإنّ ردة فعله الواضحة على قبح الظروف المحيطة تستعدي حضور التاريخ، وهو ما عبّر عنه (ربّاه هذه بصّارة البلد الآمن) كحالة من حالات البحث عن الحرية المفقودة، وكذلك البحث عن صورة مثالية للتوازن، يقول:

إنْ غَدَا العمقُ .. دَمَاراً .. يا حَبِيبِي

فاسْقِنِي النّخبَ صَبَاحَاً

واسقِنَا عِنْدَ المَغِيبِ

عَلّنَا .. نَبقَى سُكَارَى

لا نَرَى بُؤسَ الشعُوبِ[xxxiii]

يعاود الشاعر محاولاته المتكررة للخروج من الضيق النفسي وسطوته عليه والتحرر من العوائق الكثيرة المضنية، (واسقنا عند المغيب، علنا نبقى سكارى) بيد أنّ العجز تجذّر مع تراكم الزمن وتراكم الإحباطات، فتظهر في النص مجموعة من الأعراض النفسية تتمثل في البؤس واليأس، والأسى وهبوط الروح المعنوية الذي لا يتناسب مع سببه، وكذلك ((انحراف المزاج، وتقلبه، وعدم القدرة على ضبط النفس، وضعف الثقة في النفس، والشعور بعدم الكفاية، وعدم القيمة والتفاهة، والقلق والتوتر والأرق، وفتور الانفعال، والانطواء، والانسحاب، والوحدة، والانعزال، والسكون والصمت، والشرود حتى الذهول، والتشاؤم، وخيبة الأمل، والنظرة السوداء للحياة، والأفكار السوداء، والاعتقاد بأنه لا أمل في الشفاء، والانخراط في البكاء أحيانا، واللامبالاة، والنقص في الميول، والاهتمامات، والدافعية... واتهام الذات، وتصيد أخطائها وتضخيمها، والأفكار الانتحارية أحياناً، والهلاوس، وضلالات عدمية وامتزج شعوره بالعجز وبالسخرية المُرة))[xxxiv] وعند التأمل في هذا النص نجد الفزاني يعكس رؤيته الشعرية من خلال عدد من الألفاظ تحمل دلالة القلق، فالألفاظ في السطر الأول غدا، العمق دمار كلها تحيل إلى القلق أو الاقتراب منه، أما دلالة التلذذ بالقلق فتمثلها الألفاظ حبيبي، نخب سكارى ويعيد تفاصيل القلق من خلال بؤس، فالبؤس في الدلالة اللغوية أو بعبارة أخرى في المعجم يحيل إلى الفزع والقلق والموت، يقول:

لو قلتُ أنّ غُرّبَتِي عَمِيقةٌ

لو قُلتُهَا لاستضحَكَ الأوغادُ في المدينة العتيقةِ

مدينةُ اللصوصِ والرّيَاءِ والكذبِ

مدينةٌ لا تعرفُ الغضبَ

لأنّهَا بَغي، بغي لا تعرفُ الحقيقةَ

تشاءمتْ قصائِدِي في رحلةِ الضّيَاعِ

لكنّني غنيتُ للألى يُقالُ أنهم رُعَاعٌ

ناديتُ بالنّضَالِ والصراعِ

لكنّني أواهُ قَدْ أَمُوتُ

ومَوطِني الّذِي أُحبُّهُ يَحتلّهُ اليَهُودُ[xxxv]

تشهد العلاقة بين الفزاني والقلق تعالقاً ملحوظاً، فيبتعد المجتمع بقيمه عن احتياجات ورغبات الشاعر، وباتت الغربة عن تلك القيم سبباً رئيساً في الغربة القيمية ووليداً شرعياً لها ومن ثَمّ كانت سبباً في انعدام الخلاص من الأوضاع والعلاقات السائدة.

ويختلف القلق في هذا النص عن نصوص الشاعر السابقة، فالهروب من الواقع أو القلق ((تصرف يخص الحيوانات على الأكثر، ويجد سوابقه البيولوجية في سلوك أنواع كثيرة آثرت الهجرة سعياً إلى ظروف حياة أفضل، وبين معاصرينا يأتي هذه التصرفات أولئك الذين يهجرون مهنتهم أو حياتهم... وينطوي ذلك على محاولة لتغيير الحياة))[xxxvi]، ولكن القلق هنا يبرزُ من خلال العلاقة المباشرة بالواقع، ويوحي بعدم وجود حلٍّ لما يحدث في المحيط، أمّا في نصوصه السابقة فيتسع ليأخذ منحى وجودياً مرعباً، على الرغم من أنّ المحيط كان سبباً وأساساً لانطلاقه إلى ذلك الخوف المرعب، لندرك أنّقلق الشاعر كان متلازماً مع فقدان الثقة بالأفراد (مدينة اللصوص والرياء والكذب) وفقدت الحياة حيويتها وحركتها بزوال الإخلاص والأخلاق السامية (لو قلتها لاستضحك الأوغاد في المدينة العتيقة) ولا بدَّ من البحث عن عالم جميل ينفس عن قلق الشاعر وعن قبْح الواقع، فلم يتعدَّ هذا البحثُ المضني الاشتهاء والحلم (لكنني غنيت للألى يقال أنّهم رعاع)، ذلك أنّ العيش في مكان مخنوق يفرض على الأنا تفكيراً ينطلق من الفراغ ويصبُّ في فراغ، ويتراجع فعْلُ (الذات) باتجاه العزلة (تشاءمت قصائدي في رحلة الضياع). وفي ((مرحلة الشباب تكثر احتياجات الأنا وطموحاتها، ثم تتخلّى عن طموحاتها إذا ما تعرَّضتْ لحالة من الحصار، فيتلقف اللاشعور تلك الاحتياجات ويخزّنها))[xxxvii] يقول:

شهرَ زادَ فتحتْ بابَ المدينةِ

ثمُّ صاحتْ بالأبابيلِ اللعينةِ

أدخلوها .. أدخلوها فالشرقُ موتى وسُكَارَى

وبغايا وأباريقُ حقيرةٌ

كمْ روتْ لي الرّقطاءُ في ليلِ التوترْ

خبّرتني عن أبي زيدٍ وعنترْ

وسقتني ألفَ كأسٍ بتعاويذي معطرْ

وأنا ألهو غبياً . ثُمَّ أَلهُو، ثُمَّ أسكرْ[xxxviii]

استدعى الفزاني الرمز التاريخي، شهر زاد في نصه ليتركها تعبر عن رؤيته، ويبقى هو الشاهد على هذه الفاجعة. وتزداد المأساة عندما يقتل الأمير النساء كما جاءت في ألف ليلة وليلة، من خلال الأسطورة، التي وجد الشاعر أن حقيقتها لا تزال مستمرة.

وبقراءة أخرى، يبدو أنّ شهرزاد عند الفزاني لم تعد قادرة على بعث الحياة من جديد، لأنّها لم تستطع إنقاذ البشر من الموت الذي خيم على كلّ شيء، فشهرزاد التي أسست للمرأة المدافعة عن بني جنسها تلك التي استطاعت-وهي الضحية-أن تصنع من شهريار متلقياً مشاركاً في نصّ الحكايات، وكأنّه أصبح لزاماً عليه أن يسهم في إبداعها وإعادة صناعتها من جديد. قد انتهت ولم يعد لها أثر، ولم يبق منها إلاّ الجسد، لكن دون جدوى، فالشاعر قد دخل في تفاعل عكسي مع حكاية شهرزاد، فجاءت مخالفةً للأصل، إذ لم تأت شهرزاد كما عرفت في (ألف ليلة وليلة)[xxxix] رمزاً للحياة، والسعادة، والحرية، والمستقبل، بل صارت في قصيدة الفزاني رمزاً للخيانة فهي لا تستطيع أن تفعل شيئاً، لأنّ الشاعر جردها من كلّ الصفات الحيوية التي ذُكرتْ بها في حكاياتها الأصلية، وقد أراد لها الشاعر ذلك ليعبّر من خلالها عن الموت الشامل الذي أصاب القلق ورموزه الخالدة (أبي زيد، وعنتر) يقول:

آهٍ يَا ليلَ الخَرِيفْ

لا تَدَعنِي أَرْقُبُ النِيرَانَ تَخْبُو في الرّمَادِ

فَجَلابِيبُ الحِدَادِ

كَرّهَتنِي، وانْتَهَى فَصلُ الحَصَادِ

انْتَهَى

الحَصَادِ[xl]

يرتبط القلق في نص الفزاني السابق بـ((فاجعة الانفصال، وتنمو من خلال هذه الخلفية النفسية (أنا) مَنْ حملتْ فاجعة التراب الخصب و(الأنا) المتفجعة))[xli] تعكس طبيعة الصلة بين الشاعر والقلق إذ هو امتداده ووجوده، وبالرغم من الانفصال الظاهر، فإنّه في جسده يتحول من وجودها في الخارج إلى وجود داخلي، وهذه العلاقة بين الشاعر والقلق تفتح نصوص الأخير على كلّ التحولات الممكنة، إذ ارتبط القلق في شعر الفزاني بالمفهوم المتأوه، واتخذت بعداً إنسانياً اتسع ليشمل قضايا الوطن، وتمزّج الشعر بالسياسة والخاص بالعام، بحيث أصبحت لغة القلق عنده مرجعاً هاماً بين العلامات القلقية، حكاية الوطن، جزء لا يتجزأ من سيرة الشعر والشاعر والمجتمع والعالم، إنّها حالة تعكس الجنون بالتراب وتؤطر الوجود في القلق، وهي الوجه الآخر لمعركة الإنسان في الوجود ولذلك، فلن يكون استثنائياً أن يتمثّل هذا الشعر قصيدة القلق ويستحضر عناصرها في كلّ المواقف والمراحل.

وفي النصّ التالي تتسعُ دائرة القلق لدى الفزاني لتشملَ الشعب بأسره، عبر حوارية بينه وبين الشعب. وعلى الرغم من أنّ الأجواء العامة لقصائد الفزاني توحي بالقهر إلا أنّنا نرى في ذلك القهر حالةً من الثورة في بعض القصائد لديه، وخاصة في ديوان (القنديل الضائع في المدن الوثنية) فكان الفزاني فيه ثائراً من أجل كرامة الإنسان المجروحة، يقول:

شِعرِي- منثورٌ على بواباتِ الفصولِ

وفي ذاكرةِ- شعبي- الخالدِ

لا يَهمّنِي أنْ يَغْتَابُنِي- جرذٌ أعورٌ

مسكونٌ بالحقدِ-مهزومٌ.. متهرئ

أشعلُ قناديلَي لبسماتِ الطفولةِ

وللأنوثةِ والجمالِ والشبابِ والرجولةِ

أموسقُ العالمَ- في أُغنيَاتِي

وعندما أصمتُ- في الأوقاتِ الصعبةِ

يعرف الشعبُ- أنَّي أُغني

أغنياتِ الصمتِ!

ما أخطرَ أغنياتِ الصمتِ![xlii]

يخرجُ النصّ السابق بلون أسود قاتم، لا شكّ هو وليد هو وليد واقعٍ أكثر اسودادٍ منه، حيث الوضع الإنساني المتخلف، ((ولكنه في النهاية هو الفارس القديم لأنه يعيش في غير عصر الفروسية وهو في النهاية مهزوم، كما أنه هو الملاح الذي مات قبيل الموت حين ودع الأحباب والأصحاب والزمان والقلق))[xliii] النصّ وليد تجربة مرة، ويأس محبط، وواقع دامس، ووليد لوحة مؤلمة لواقع مفزع فـ((القلق شعور معمم فيه خشية وعدم رضا وضيق، وتتفاوت درجات الاستجابة للمواقف في الشدة بين الدرجة المنخفضة والمتوسطة والعالية حسب ما لدى الفرد من استعداد كامن للاستجابة للقلق. فالشخص صاحب الاستعداد العالي للقلق يدرك تهديد تقدير الذات في مواقف كثيرة ويستجيب له بحالة قلق زائدة لا تناسب ما في الموقف من خطر حقيقي، أما الشخص صاحب الاستعداد المنخفض للقلق، فيدرك التهديد في مواقف الخطر الحقيقي ويستجيب بقلق مناسب مبالغ فيه))[xliv] بمعنى أن الواقع قد لا يكون أساساً موجداً لذلك القلق، وإنما ذلك القلق ناتج عن أسباب داخلية، يقول:

في هَذِهِ المَدِينَةِ

التي حملتُهَا في دَاخِلِي

طوَّفْتُ بها- أنهارَ العالمِ

ومحيطاتِه

أغسلُ عارَهَا مِنْ عفنِ الملكيةِ

والسقوطَ والنخاسةَ والرجعيةَ واللواطَ السياسي

فوقَ جلبابِ الملكِ

فوقَ-جبةِ القبائلِ!

تطارِدُنِي مرةً أخرى

دعونِي أعلنُ أمامَكُم مَا يلي:

نقيضان هُمَا الثورةُ والاغترابُ

إذا كان لا بدَّ مِنْ تغريبٍ قسري آخر

باسمِ أقنعةٍ جديدةٍ

فأنَا الذي سأختارُ موتِي[xlv]

لا يحتاجُ هذا النصَ إلى توضيح، فهو تعبير واضح على القلق وسواده، ((فيحسُّ الشاعر كأنّه ليس من هذا العالم المجنون. إنّ العالم لدى الشاعر يجب أنْ لا يكون حسبما ترسمه تصوراته فإذا قارن بين ما يتصوّره، وبين ما يعيش فيه، انتابه الهلع من هول المفارقة. ففي هذا العالم المأفون المدان لا يشعر المرء بألفة معه))[xlvi]. إنّ القلق عبر احتمالاته ودلالاته-ينطوي على مجموعة الضغوط التي يمارسها المجتمع على الشاعر، وتنطوي أيضاً على المكبوتات التي يقوم الشاعر جاهداً بإرجائها كي تحقق حالة التوازن،

وربّما تنطوي أيضاً على الاغتراب الذي أصابه، وعليه ((فنحن نفكر فيها فقط بمستوى غريزي خالٍ من الكثافة))[xlvii]، ولذا فإنَّ الاحتمالات تتعدد لمفردة (تطاردني) في هذا النص، حيث يضيق القلق بفسحته واتساعه أمام المطارَد فاللفظة تعبير دقيق لمكان يرفض الشاعر ولا يقبله، هذا ما قاله وما يزيد في سوداوية القلق لفظة (النخاسة) المتجذرة في تاريخينا، وفي شعرنا أيضاً، ألم تكن تلك اللفظة هي الوسيلة التي هجى بها المتنبي أعداءه، وهي التي جعلت عنترة يثور ثورته العارمة ضدها؟ الفزاني لم يكن غائباً عن القلق ولكنه استحضر الزمان أيضاً.

إن التكهنات لتركيب (الثورة والاغتراب) تتعدد في الدلالات والاحتمالات الإيحائية، وجميع تلك الاحتمالات تصبُّ في حيز السوداوية وفي الشعور بالنهاية المحتمة، ذلك ما ظهر في نهاية النصّ (فأنَا الذي سأختارُ موتِي) يقول:

مَنْ ذَا يدلُّ المخبرينَ

عَنْ مخبأِ المتآمرِ الوغدِ اللئيمِ

قَولِي لأنّكَ ما تَزَالُ تمدُّ كفكَ

للسديمِ

لتجسَّ مولدَ شمسِكِ البيضاءِ

قَولِي ما تزالُ

يا أنتَ تبسطُ للمثاليينَ كفكَ

بالوفاءِ

فستأكلُ الجدرانُ قلبَكَ في الشتاءِ

ويعلّق الجلادُ رأسَكَ فوقَ أبراجِ،

المدينةِ[xlviii]

نبدأُ من حيثُ انتهى النصّ، حيثُ مقصلة الموت تعاود من جديد، وتتجسد في القلق الذي غدا منصةً سوف يشنقُ على أبراجهَا الإنسانُ، وهو سببٌ مهمٌ في ضياعِ الشاعرِ، وهو الثمنُ الباهظ الذي دفعه للحضارة العربية القديمة وغير القديمة، بخصائصها وأسسها المنعكسة سلباً عليه، لما تُنْتِجُهُ من علاقاتٍ ماديةٍ صرفة على حساب إنسانيةِ الإنسانِ، إضافةً إلى العلاقات الاجتماعية الظالمة.

إنّ (المخبرينَ، فستأكلُ الجدرانُ) وغيرَهَا هي من منتجاتِ العصرِ الحديثِ الحضارية كانت سبباً رئيساً من أسباب ضياع الشاعر وقلقه لأنّها تقف حاجزاً منيعاً دون ممارسة الإنسان لحقه السياسي، بيد أنّها تُفسحُ المجال لعلاقات تفتقد المودة بين الناس على الرغم من أنّها مفيدة على صعيد إنجاز الأعمال وتسهيل الحركة والإنتاج، ولكنّ الإنسان الذي يمتلك الكثير من الأحاسيس والمشاعر، فقوله: (ويعلّق الجلادُ رأسَكَ فوقَ أبراجِ المدينةِ) لم يأتِ عبثاً، لأنّه تقدم شاء أنْ يسرّع في عملية الانتقال إلى عالم مشابه له بأقصر فترة ممكنة، وما قوله أيضاً: (لتجسَّ مولدَ شمسِكِ البيضاءِ) وتأكيده على (قَولِي ما تزالُ) سوى تعميق لحالة السوداوية من جهة هربٍ حاسم، من دون عودة إلى الواقع الموضوعي، كذلك، فإنّ (الوفاء) يوطّد صورة الهرب والاختفاء عن القلق لأنّه أضحى مرعب ومقلق.

إنّ كلّ إنسانٍ عند (الفزاني) ممتهن، وهذا ما يبررُ استخدامَ ضمير المخاطب بشكلٍ واضح في النصّ، لأنّ الإنسان لم يستطعْ أنْ يتفادى وطأة الصورة القاتمة في المحيط، فهو لا يقدر على فعل شيء

أمام تفشّي الظواهر المريضة الكثيرة التي يراها، وهكذا انتهى الأمر إلى تأزم عام، تفاقم حتّى انتهت إثره العوالم المضيئة والبريئة في آن واحد. يقول في قصيدته (انتظار على رصيف الموت):

أفٍ، مِنْ وأدِ حروفي على دربِ الكلابِ

عينُ يعقوبَ تغني في انتظارِ

فارسٍ يعطيكَ يا أمَّ المَحَارِ

إنّ آلامَ السنينَ

لمْ تزلْ نَدبَاً

على وجهِ اليقينِ[xlix]

إنّ استدعاء الشخصيات الدينية القديمة يكتسب قيمته من الحضور الخاص الذي تمثله هذه الشخصيات في وجدان المجتمع، حيث يظهر هذا الاستدعاء في جزء من النص، يكون صوت الشاعر فيه هو صوت الراوي الذي يتحدث عن تلك الشخصية، وبالتالي يكون الحديث موجهاً من الراوي إلى القارئ المفترض، ويستحضر هذا الحديث تجربة يعقوب مع الألم والحزن في انتظار عودة ابنه يوسف-عليه السلام- يقول تعالى: **(وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ)**[l]، لكنّ الشاعر يقيم تداخلاً بين النص القرآني ونصه اللذين يجمعهما موضوع واحد، هو طبيعة علاقة الإنسان مع القلق، مع الأخذ في الاعتبار أن السردية في سورة يوسف لا تغادر القلق، الذي ينطوي على السوداوية(البئر-السجن-الدار) حاكاها الشاعر لتعبر عن سوداوية من نوع آخر، إنها تلك التي تقيم العلاقة الظالمة دون هدف مبرر، أو دون فائدة مرجوة، إنه الانتقام البشري الغريب الذي تجسد في صورة الألم والندب والحزن، ليظهر موقف الشاعر من خلال الوصف للمكان السوداوي. يقول:

من يدرأُ السعالَ والسّهادَ والسّقم؟

وتحملُ الرّياحُ والمذياعُ لي

أغنيةَ شرقيةَ الشجونِ والألم

حكايةً قديمةً عن شهرزاد[li]

روايةُ عن عاشقٍ ... وقصةٍ عن فاتحٍ

عظيمٍ جيادُهُ أصيلةٌ[lii]

يستعدي دفاع شهر زاد عن بني جنسها، وحكايات البطولة التي ترويها وخيانة زوجة الأمير شهريار لها، يستعدي الفضاءات المهزومة والضائعة، والمستكينة سكوناً يصل حد الموت والغارقة بالخوف والفزع، وإنّه لمن الأهمية بمكان، أن تتمركز القصيدة عند شهرزاد، فيتمكن الشاعر من الحفاظ على رؤيته، لتساعده على أن يرى أكثر مما يراه في الواقع، ليستسلم الشاعر تدريجياً للبدائية مخلفاً وراءه واقعاً صريحاً، وحياة رغدة من أجل الوصول إلى وعي أسمى، عندئذ يتمكّن من السيطرة على حلمه، ومن الطبيعي أن يكون المقطع الأخير هو (الخلاص) وفيه يكتمل المغزى باكتمال الرمز وينتهي النص بهذه النهاية التي ربّما تبدو تقليدية بما فيها من تشابه في النهايات السعيدة لحكايات ألف ليلة وليلة، ولكنّها بمغزاها الجديد تشكّل حلقة وصل بين الفزاني وألف ليلة، ليس فقط مكانياً، بل فنياً، فهي تنشد منظور ألف ليلة النثري المكثف، وتغني رؤية الفزاني المبطنة. هل كان الفزاني على وعي بألف ليلة؟ لا تفارق شهر زاد الفزاني في رحلتها من أولها إلى آخرها، وربّما انطلق منها، كما انطلقت هي في حكاياتها في ألف ليلة وليلة.

ويمزج الفزاني بينه وبين الطفولة، أرادها الفزاني ((وسيلة شاغلة عن قلق الموت، و بها يقتل ديمومة القلق لأن هذه الموضوعة تبدد الزمن ولا تترك فراغاً عند الشاعر للغرق في لجج القلق كذلك انكب الشاعر على بناء اللحظة، وجسدها، وخلق منها زمناً متكاملاً عمل على استحلابه حتى آخر نأمة للابتعاد النفسي عن مواجهة القلق)) [liii] مع علمنا أن المأساة تتضخم وتتسع إذا حضر الأطفال معها، **يقول:**

ويهجعُ الأطفالُ يحملونَ بالصوامع

والشاعرُ الذي يدبّجُ القصيدَ والرّوائعَ

(حَبِيبَتِي .. شقائقُ النعمانِ لكِ

والمُوجُ والزّهورُ، ملءَ قبضتك

لبيكِ اسألِي .. فالخاتمُ السحرِي في يدي

والأرضُ بَغلتِي

والكونُ لُعْبَتِي[liv]

يبدو أنه من الفطرة الإنسانية أن يعود الإنسان إلى الطفولة، حيث العوالم البريئة التي لم تمتد إليها أيادي العبث، فتمتزج الذات بالحس، والنفس، والوجدان، فتُكوّن جوهراً في مطلق الإحساس وتشكل رافداً غنياً للذات، ويبدو أنّ السحر يشارك في إكمال تلك اللوحة التي ترسم أمامه صورة الواقع الذي خيم عليه اليأس، والفقر، والسوداوية، فحضور الطفولة في النص، وقد تلونت بلون القلق أرداها الشاعر أن تكون سواء في حب مشتت أو في وطن مشتت، أو في إنصاف مشتت أو في غيره من رؤى الشاعر التي هي أكبر من أن تلتصق بأحلام طفل، وعلى هذا الأساس، فإن للقلق نسباً مع النص كما أنّ للشاعر بهذا المفهوم علاقة قرابة مع قصائده التي تكشف عن سريرته، تلك القرابة تقتضي أن يحبر الشاعر الصادق شعره بقلقه، ليخالف منطق كتابة الشعر بالمداد[lv]، وهذا ما نجده بارزاً في قصيدة الفزاني، الشاهد على المشاهد القلقة التي حولت الأجواء إلى عالم سحري يغادر الواقع ولا يقبله فـ((الغاية الوحيدة من الأسطورة هي تجميد حركة العالم وتفسر للكائن البشري الحائر ما يجري في لاوعيه، وما يبقيه متماسكاً)) [lvi]حتى يُبعث من جديد فصوّر الظلام الذي ساد الأشياء دون أن يبحث عن السبب الكامن وراء هذا الظلام، ولكننا ندرك أن وراء الظلام ظلام داخلي سكن الفزاني وأمده بهذا النفس الشعري الخلاق، يقول:

بكيتُ يا صَغيرتِي لأنّنَي وحيدٌ

ما ألعنَ الحياةَ في شوارعِ المدينة

بمقلةٍ حزينةٍ حزينةٍ حزينةٍ

وعِنْدَما تدقُّ ساعةُ الميدانِ

تستيقظُ الأشواقُ في الأعماقِ والإنسانِ[lvii]

يبدو أنّ عزلة الفزاني وقلقه ارتبطا في النص بالطفولة، من خلال حواره مع شخصية أخرى أرادها هنا أنْ تكون ابنته، التي تشكّل متكأً تتواصل عبره معطيات الحالة، ومفتاحاً للنص، ((وقد نستشعر الغربة والضياع عند الكثير من المواطنين، وذلك نتيجة حرمانهم ممارسة حقوقهم المشروعة، فتنشأ عندهم حالة من الاغتراب، فليس عندنا حجر سياسي فقط، بل هناك حجر فني وأخلاقي))[lviii]، فتعجب الشاعر (ما ألعن الحياة في شوارع المدينة) يحمل مدلول سوداوي قاتل. إنّ ((النفور من القلق ممتزجاً مع الحنين إلى الأم

وإلى الطفولة نزعة رومنطقية أصيلة، وقد وجدت لها تعبيرات مختلفة في الأدب العربي في هذا القرن، كما وجدت لها بدائل أخرى في الحنين إلى الماضي الذهبي أو في العودة إلى الطبيعة الغاب (عند المهجرين) أو التشوف إلى يوتوبيا...أو في خلق مدن مسحورة تغني الشاعر عن مدينة الواقع المليئة بالآلام والعذاب))[lix] وهذا القلق في النص يحمل بين جنباته العذاب، ((لأنّه لم يستطع أن يتفادى وطأة الصورة القاتمة في المحيط فهو لا يقدر على فعل شيء أمام تفشّي الظواهر المريضة الكثيرة التي يراها هنا وهناك))[lx] وهكذا انتهى الأمر إلى قلق نفسي فهو((يختلف عن الخوف حيث يشير القلق إلى حالة نفسية تحدث حين يشعر الفرد بوجود خطر يتهدده وهو ينطوي على توتر انفعالي تصاحبه اضطرابات فسيولوجية مختلفة. بينما يشير الخوف إلى حالة نفسية توجد عند الشخص حين يتهدده خطر ما، وينطوي أيضاً على توتر انفعالي واضطرابات فسيولوجية مختلفة)) [lxi] يقول:

رجل وقع من طائرة نفاثة

وقع في فوهة بركان ثائر

رجل تفجرت تحت بيته قنبلة عنقودية

وسقطت فوقه خمسون قنبلة نابالم

رجل أكله تمساحٌ إفريقي ضخم

ابتلعه تماما

سبعون أفعى في كل واحدة رأس ولها

سبعون من الأنياب السامة جداً

عضت- رجلاً واحداً

هؤلاء جميعاً لم يموتوا

بعضهم بلغ التسعين من العمر

وبعضهم يقود جرّارات ثقيلة

لكن رجلاً واحداً

قوي البنية كثور أسباني

كفيل إفريقي شاب

تعثرت- أذناه- بخبر موجز

من إذاعة- شرقية

سقط لتوه ميتاً

وتحلل جسده بعد عشرين

ثانية![lxii]

بالفعل التراكمي للقلق أصبحنا وكأننا بالشاعر قد يئس من هذه الحياة، لذا يحاول أن يقيم نوعاً من التوازي مع القتل من خلال محاولة الاقتراب منه، ومع هذا فـ((المتعرضين للذكريات المؤلمة يحاولون قدر الإمكان بشتى الطرق، التغلب على هذه المشاعر والذكريات، فيلجئون إلى الكبت مرة، وإلى القمع

مرة أخرى، وهي وسيلة للنسيان اللاشعوري للذكريات المؤلمة، والقمع إقصاء للأفكار غير المقبولة في اللاشعور بعيداً عن الوعي، إن القمع عملية لا شعورية نستطيع من خلالها منع أنفسنا من التذكر، إنها عملية وقاية من الذاكرة المؤلمة، وحماية أنفسنا من إدراك نزعة في الذهن للنفس من استعادة الألم عن طريق إبعاد تلك الذكريات لعله يخفف من وجعه))[lxiii] ولو قدر لرسام أن يحيل هذا النص إلى لوحة فنية، لظهر لنا تمازج السقوط المختلف مع القلق الذي نكاد نراه في حياة علي الفزاني، إنه سقوط الأخلاق، وسقوط الإنسانية، فالثور الأسباني، والتمساح الأفريقي، والأفعى كثيرة الرؤوس، هي صورة حقيقية لواقع جعل من الشاعر يرسم لوحات القلق بمداد دمه.

4-تركيب:

1-النظرة السوداوية للفزاني سيطرت على معظم شعره، ولعل تعليل ذلك يكمن في كونه لم يكن يشعر بالعلاقة الحميمية بينه وبين المجتمع، تلك التي شعر بها أسلافه.

2- وقع الفزاني تحت وطأة (القلق) لدوافع عديدة منها: اللون، وإخفاقه في بلورة توجهه، شعوره بالنقص، والتناقض الداخلي والتقلب، السياسة، وربما الفقر.

3-التناقض الواسع في الصورة يحيل على البون الشاسع الذي يفصل الشاعر عن واقعه، ونعني بالتناقض أن الحقول الدلالية في تركيبة الصورة تعاكس بعضها بعضاً تماماً على صعيد المعنى كما لاحظنا في مطارد من داخلي، وما هذا التناقض إلاّ جزء من التناقض الأوسع الذي وسم شعره بعامة.

4-البحث في تفاصيل القلق واختيار مواطن الألم منه ظهر في أكثر من منحى.

5- لقد تبلور مفهوم القلق في شعر الفزاني، فسماتُه عامة، تحيل النص الشعري على الفردية والعزلة والاغتراب والتمرّد والاستلاب.

6-وجد الشاعر القديم مبرر شرعي للقول الشعري، ووجد الفزاني مبرر جديد، كان محفزاً له، ألا وهو القلق.

7-لم يكن الفزاني مقلداً، ولم تكن نصوصه الشعرية نصوصاً باهتة، بل كان شعره تعبيراً عن تجربة فردية، وحياة وجدانية صادقة.

8-إن كلّ نص من النصوص المدروسة يحتاج إلى بحث مفصل، يعمق فهم هذه الظاهرة في شعر الفزاني.

مصادر:

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، الجزء: السادس.
- إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، منشورات عالم المعرفة، الكويت، 1978م
- آرنوف ويتج، مقدمة في علم النفس، ترجمة: عز الدين الأشول، دار ماكجدوهيل، 1977م.
- الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، تحقيق: طاهر الجزائري، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1982م.
- السيد علي شيّا، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، دار الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة: الأولى، 1984م
- بدر محمد كاظم، علي مهدي، الفروق في القلق والاكتئاب بين طلاب وطالبات جامعتي الكويت والسلطان قابوس، حوليات مركز البحوث والدراسات النفسية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الحولية الثالثة، القاهرة، 2007م
- جان ماري بليت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ترجمة السيد عثمان، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الكويت، 1994م
- حسن نجمي، شعرية الفضاء (المتخيل و الهوية في الرواية العربية) المركز الثقافي العربي بيروت، لبنـان، 1991م
- حنا عبود، النحل البري والعسل المر، وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة: الأولى، 1972م
- صلاح صالح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة: الأولى، 2003م
- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984م، الطبعة الأولى، 1984م.
- عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث، قوة للإنسان، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، 1983م
- عبدالله مليطان، معجم الشعراء الليبيين، دار مداد للطباعة والنشر والتوزيع والإنتاج الفني طرابلس، ليبيا، الطبعة: الأولى، 2008م.
- علي الفزاني، المجموعة الشعرية الكاملة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس 1975م.
- غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، الطبعة: الثالثة، بيروت، 1987م
- غريب عبد الفتاح غريب، مقياس الاكتئاب، التعليمات ودراسات الثبات والصدق وقوائم المعايير مكتبة النهضة العربية، القاهرة، الطبعة: الثانية، 2003م.
- مارلين ستون، يوم كان الرّب أنثى، نظرة اليهودية والمسيحية إلى المرأة، ترجمة: حنّا عبّود الأهالي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، الطبعة: الأولى، 1998م
- محمد جاسم العبيدي، مشكلات الصحة النفسية، أمراضها وعلاجها، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمّان الطبعة: الأولى، 2004م

- محمد سعيد سلامة، (مدى فاعلية برنامج علاجي معرفي سلوكي في تخفيف حدة الاكتئاب لدى الأطفال) رسالة دكتوراه، معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس، القاهرة، 2003م

- محمد عبد المعطي، قضايا الفلسفة العامة، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، الطبعة: الأولى 1984م.

- مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، 1983م.

- ممدوحة سلامة، الإرشاد النفسي، منظور إنمائي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة: الأولى 1993م

- ممدوحة سلامة، الإرشاد النفسي، منظور نمائي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1993م

- نبيلة إبراهيم قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة، بيروت، 1974م

- يوسف سامي اليوسف، الشعر العربي المعاصر، مطبعة الكتاب العربي، دمشق، 1980م

هوامش:

[i]-آرنوف ويتج، مقدمة في علم النفس، ترجمة: عز الدين الأشول، دار ماكجدوهيل، 1977م، ص: 134.
[ii]-السابق، الصفحة ذاتها.
[iii]-محمد عبد المعطي، قضايا الفلسفة العامة، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، الطبعة: الأولى، 1984م ص:123.
[iv]-المصدر السابق: 126.
[v]-عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984م، الطبعة: الأولى، الجزء: الحادي عشر، ص:461.
[vi]-المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
[vii]-الجاحظ، الحنين إلى الأوطان، تحقيق: طاهر الجزائري، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، 1982م ص: 8.
11-علي الفزاني، المجموعة الشعرية الكاملة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، 1975م، الجزء: الأول، ص: 19-20.
12-مصطفى ناصف: الصورة الأدبية، دار الأندلس، بيروت، 1983م، ص: 127.
12-المصدر السابق، الصفحة ذاتها.
13-انظر: حسن نجمي، شعرية الفضاء (المتخيل و الهوية في الرواية العربية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1991م، ص:57.
[xii]-عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث، قوة للإنسان، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1983م، ص: 14.
[xiii]-المصدر السابق، ص:18.
16-علي الفزاني، المجموعة الشعرية الكاملة، الجزء: الأول، ص: 19-20.
[xv]-صلاح صالح، سرد الآخر، الأنا والآخر عبر اللغة السردية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة: الأولى، 2003م، ص:18.
[xvi]-عاطف جودة، الخيال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م، ص: 248.
[xvii]-المصدر السابق، ص:258.
20-المصدر السابق، ص: 14.
[xix]-عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث، ص:27.
[xx]-المصدر السابق، ص:33.

xxi-المصدر السابق، ص: 65.
24-السيد علي شتّا، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، دار الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة: الأولى 1984م، ص:19.
25-المصدر السابق، ص : 37.
26-المصدر السابق، ص: 14.
27-حبيب مؤنسي، فلسفة القلق، ص:44.
xxvi-عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث، ص:36.
29-محمد سعيد سلامة، (مدى فاعلية برنامج علاجي معرفي سلوكي في تخفيف حدة الاكتئاب لدى الأطفال) رسالة دكتوراه، معهد الدراسات العليا للطفولة، جامعة عين شمس، القاهرة، 2003م، ص:67.
30-المصدر السابق، ص:78.
31-يوسف سامي اليوسف، الشعر العربي المعاصر، مطبعة الكتاب العربي، دمشق، 1980م، ص: 26.
32-كلُّ ما هِيلَ عليه التراب فهو رمس، لسان العرب، دار صادر، الجزء: السادس، ص:101.
33-علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء: الأول، ص: 52-53.
34-بدر محمد كاظم، علي مهدي، الفروق في القلق والاكتئاب بين طلاب وطالبات جامعتي الكويت والسلطان قابوس، حوليات مركز البحوث والدراسات النفسية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الحولية الثالثة، القاهرة، 2007م ص:29.
35-عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث، ص:38.
36-علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء: الأول، ص: 54.
35-عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث، ص:38.
37-المصدر السابق، ص: 106.
38-جان ماري بليت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ترجمة السيد عثمان، المجلس الأعلى للفنون والآداب، الكويت، 1994م ص: 123.
39-غريب عبد الفتاح غريب، مقياس الاكتئاب، التعليمات ودراسات الثبات والصدق وقوائم المعايير، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، الطبعة: الثانية، 2003م، ص: 115.
40-علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء: الأول، ص: 193.
41-المصدر السابق، ص: 67.
42-انظر: نبيلة إبراهيم قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية، دار العودة، بيروت، 1974م ص: 22-23-45-70.
43-علي الفزاني، قصائد مهاجرة، ص: 256.
44-السيد علي شتّا، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، ص:76.
45-علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء: الأول، ص: 141.
46-السيد علي شتّا، نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع، ص:143.
47-محمد جاسم العبيدي، مشكلات الصحة النفسية، أمراضها وعلاجها، مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمّان الطبعة: الأولى، 2004م، ص:77.
48-علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء: الأول، ص: 123.
49-ممدوحة سلامة، الإرشاد النفسي، منظور نمائي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1993م ص:59.
50-غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، الطبعة: الثالثة، بيروت، 1987م، ص:11.
51-علي الفزاني، المجموعة الأولى من الأعمال الشعرية الكاملة، الجزء: الأول، ص: 69.
52-المصدر السابق، ص: 29.
53-سورة يوسف، الآية:84.
54-انظر: مارلين ستون، يوم كان الرّب أنثى، نظرة اليهودية والمسيحية إلى المرأة، ترجمة: حنّا عبّود، الأهالي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، الطبعة: الأولى، 1998م، ص: 32.
55-علي الفزاني، قصائد مهاجرة، ص: 162-163.
56-المصدر السابق، ص:164.
57-وليد مشوح، الموت في الشعر العربي السوري المعاصر، ص: 125.
58-علي الفزاني، قصائد مهاجرة، ص: 96.

59-ممدوحة سلامة، الإرشاد النفسي، منظور إنمائي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة: الأولى 1993م ص:48.
60-المصدر السابق، ص:56.
61-محمد أحمد إسماعيل، المثقف العربي بين التغريب والأصالة، ص:10.
62-إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، منشورات عالم المعرفة، الكويت، 1978م، ص: 81.
63-ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، ص:13.
64-حنا عبود، النحل البري والعسل المر، وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة: الأولى، 1972م، ص:77.
65-المصدر السابق، ص: 14.
66-ممدوحة سلامة، الإرشاد النفسي، ص:51.